الفصل السابع عشر

أم في الجيش

بعد أن مضت بضعة أسابيع على وجودي في قاعدة لاكلاند، أخبرني المدرب العسكري (برانون) بأنه سيعينني قائدة فصيلة. كانت فصيلتي تتكون من ثمانية عشر جنديًّا وجندية، وعندما كنا نصطف في تشكيلات (ثلاثة صفوف) كان عليّ معاينة الزي العسكري والتأكد من أن الياقات مستقيمة، ويرتدون جوارب ذات لون صحيح. وكنت أذكرهم بأن يعبئوا قربهم بالماء، وبعد ذلك كنت أسير في المقدمة، أمضيت شهرًا واحدًا في المجموعة الحمراء، ثم انتقلت إلى المجموعة البيضاء. فسألت المدربين العسكريين (دينسون) و(روب) إن كنت سأظل قائدة فصيلة؟، فوافقا على ذلك. وفي يوم الجمعة خضعت لاختبار قصير، واجتزته بعلامة عالية، لم أستطع مغادرة القاعدة، لكن أمكنني الذهاب إلى المتجر العسكري لأشتري هاتفًا جوالًا لأتصل بأطفالي وأندريا خلال وقتي الشخصي.

كانت إيمان أيضًا في المجموعة البيضاء، وأرادت أن تشتري هاتفًا جوالًا، لكن لم يكن لديها المال الكافي لتدفع ثمنه، مع أنها كانت تتقاضى راتبًا شهريًّا مثلي، فطلبت مني أن أدفع ثمن واحد لها، وستسدد الدين في نهاية الشهر، فدفعت مبلغ ٤٠٠ دولار لكل هاتف عن طريق بطاقتي الائتمانية. ارتعدت قليلًا عندما سلمتها الهاتف، لكن ما نفع الصداقة إن لم أساعدها؟ وأنا لم أرد أن أكون ذلك الشخص الذي لا ينسجم مع أي أحد.

ثم ذهبنا لنرى مصففة شعر في متجر صغير في المتجر العسكري؛ حتى أقص شعري. حاولت إيمان أن تقص شعري في الليلة السابقة، لكن كانت الأطراف غير متساوية، وجهة أقصر من جهة. فبللت المصففة شعري، وبدأت تمشط، لكن انقطع التيار الكهربائي فجأة لم أرغب في أن أغادر وشعري يبدو أسوأ مما كان عليه عندما قصته إيمان، لذلك انتظرت وانتظرت، وبعد ساعتين لم يرجع التيار الكهربائي بعد، فالتقطت مصففة الشعر المصباح اليدوي من الخزانة في آخر الصالون، ووجهته على شعري حتى تنهي قصه. وعندما انتهت لم يتجاوز طول شعري مستوى ذقني، فكانت هذه أقصر تسريحة أقصها في حياتي. وبسبب انقطاع التيار الكهربائي لم تستطع أيضًا أن تجفف شعري بمجفف الشعر أو تمهده، لذلك جف

على شـكل تجاعيد ما جعل شـعري يتجه للأعلى أكثر من قبل، لم نكتشـف أبدًا سـبب انقطاع الكهرباء.

وفـي النهاية عندما غادرنا الصـالون أرادت إيمان أن تذهب إلـى مطعم وجبات خفيفة في المتجر العسـكري حتى تلتقي شـابًّا سعوديًّا التقته مسبقًا، لكني كنت خائفة من أن نمسك، فلـم يكـن من المفترض فينا أن نتكلم مـع الرجال خلال مـدة تدريبنا، ولم يكـن أحد يدري متى سيحضـر أحد المدربين العسـكريين، فنبهت إيمان إلى ذلك، وقبل أن يحضر الشاب إلى المتجر سألت إيمان أين التقته، وكيف أعطته رقم هاتفها؟، فقد استغربت كيف أتيح لها الوقت بأن تتعرف إليه، ناهيك عن طيشها، لكنها اكتفت بالضحك علي بسبب خوفي الزائد.

وقالت لي بلا مبالاة: «لقد رأيته يا فدوى، في القاعدة خلال الاسـتراحة بين الحصـص الدراسية، وكتبت رقم هاتفي على قصاصة ورق، وأعطيته إياها. ثم اتصل بي في الليلة نفسها خلال وقتي الشخصي».

«أنت مجنونة يا إيمان! أنهي تدريبك، ثم ابحثي عن صديق بعد ذلك!».

كان صـديق إيمان يدعى سـليمان، طوله ١,٨٠ سم وذو بشـرة فاتحة وابتسامة جميلة. فحيّانا قائلًا: (السلام عليك).

كان سـليمان جنرالًا في سلاح الجو السـعودي، وكان يتدرب في قاعدة لاكلاند مدة ستة أشهر ليتعلم اللغة الإنجليزية العامة، قال سليمان:

«لأن التيـار الكهربائـي منقطع هنا فـي المتجر العسـكري، وأنا متأكد أنكـن يا فتيات، مشتاقات إلى الطعام الشرقي، فما رأيكما في أن آخذكما إلى مطعم شرقي؟».

فسألته، قائلة: «ألدينا مطعم شرقي هنا في القاعدة؟».

ابتسم، وقال: «لا، خارج القاعدة».

«لكن لا يسمح لنا بالخروج من القاعدة، باستثناء الذهاب إلى المتجر العسكري».

اتفقا أخيرًا على الاتصال بالمطعم ليطلبا توصيل الطعام الشرقي إلى المتجر العسكري، فجلس ثلاثتنا على طاولة في المتجر في العتمة، يشع علينا نور ضئيل آتٍ من النافذة.

جلسنا على الطاولة، وضحكنا وقتًا طويلًا، كان من الرائع تناول الطعام الشرقي مجددًا، وفي أثناء ما كنا نتناول طعام الغداء، الذي اشتمل على حمص وفلافل وسلطة، دهشت كثيرًا عندما أشعرني هذا المذاق المألوف بالحنين للوطن. فالتقطت بعض الصور لهما باستخدام كاميرا اشتريتها من المتجر العسكري. ثم عرض علينا سليمان أن يأخذنا بجولة في سيارته حول القاعدة، لكن هززت رأسي، قائلة:

«لا أريد أن أتورط في مشكلة بسبب هذا، دعينا نعود حالًا إلى الثكنات يا إيمان، أنا لم آتِ هنا لأبحث عن صديق، بل لأنهي تدريبي، وأحصل على عمل، فأنا أحتاج إلى ذلك لأحسن وضعي».

«بالله عليك يا فدوى، لا تخافي».

«أنا لست خائفة، كل ما في الأمر أنني أتيت إلى هنا لأبحث عن مستقبل لي، وإن كنت أريد صديقًا لوجدت واحدًا بسهولة خارج القاعدة».

«هيا يا فدوى، ليس هناك أحد غيرك آخر أثق به».

«إن كنت تثقين بي فعلًا، وتظنين بي خيرًا فلا تضعيني في هذا الموقف الصعب».

رضخت إيمان في النهاية، وعدنا إلى الثكنات، وعندما وصلنا إلى مكتب المدربين العسكريين وجب علينا عرض جميع مشترياتنا لإثبات أننا لم نشترِ أي محظورات، ثم وضعت الكاميرا في خزانتي في مكتب المدربين الى حين أنهي تدريبي العسكري، ثم يعطوني إياها.

وبعد ذلك بدأت إيمان تخبر الناس بأنها ابنة عمي، وهذا هو سبب تشابه اسم عائلتينا. كان الآخرون يعلقون قائلين بأن شخصيتينا مختلفتان، ولا يمكن أن نكون أقارب، لكنهم لم يهتموا كثيرًا بالأمر. كنت أعرف أنها تحاول أن تستغلني؛ لأن الآخرين يحترمونني، لكن صعُب علي أن أحرجها، وأقول: إنني لم ألتقِ بها إلا عندما غادرنا نيويورك.

ثم قررت إيمان أن تسأل الرقيب الأول إن كان بإمكانها الحصول على حاسوب محمول لتستخدمه في دراسة اللغة الإنجليزية على الإنترنت؟ فطلبت مني أن أكون رفيقتها العسكرية، فوافقت على مضض. كان لدينا أصلًا ثلاثة حواسيب نستخدمها لنفتح البريد الإلكتروني العسكري، لذلك لم أعرف كيف ستتمكن من إقناعهم بالسماح لها بالحصول على حاسوب محمول، لكني على أي حال ذهبت معها لأتحدث مع الرقيب الأول.

obeikandl.com

«حسنًا يا حمدان، ما قصتك؟».

سألته إيمان إن كان بإمكانها الحصول على حاسوب محمول؟، فأجابها قائلًا:

«لا، ليس مسموحًا لك أن تحصلي على حاسوب محمول إلا بعد أن تنهي تدريبك، ألم يوضحوا ذلك لكنّ عندما وصلتن إلى هنا؟».

هزت إيمان كتفيها بلا مبالاة، ردًّا على السؤال، لكني شعرت بالإحراج، خاصة بعد أن التفت إلي الرقيب الأول قائلًا:

«هل أنت متأكدة أنكما قريبتان؟».

فتدخلت إيمان، قائلة:

«نعم، أيها الرقيب نحن بنات عم».

لم أصحح كلامها، لكني تعبت من صراخ الآخرين علي والإحراج الذي تسببه لي إيمان، كلما فعلت شيئًا لا يفترض فيها فعله. فبعد أن غادرنا مكتب الرقيب الأول قررت أن أضع حدًّا لهذا، فقلت لها:

«أتعلمين يا إيمان؟ ابقي بعيدة عني. لا أريد أن أتورط في المشكلات بعد الآن».

سرعان ما عثرت إيمان على رفيقة عسكرية أخرى من العراق تدعى اسم عائلتها (البغدادي). وقبل أن تجتمعا كانت البغدادي غيورة قليلًا من صداقتي بإيمان. فقد كانت تفعل أشياء مثل إخباري بأشياء سلبية عن إيمان، لكن كانت تقول لها كلامًا آخر سرًّا. كانت البغدادي رفيقة البنت المصرية (عطى) العسكرية.

ولاحقًا وقفت جميع الجنديات داخل الثكنات أمام خزائننا ليخضعن للتفتيش، فالتفت المدرب العسكري (آبريو) إلى المدرب العسكري (برانون)، وقال:

«أتعلم أيها المدرب (برانون)، حمدان ستكون قائدة ثكنات جيدة».

أرادني أن أكون قائدة جميع الثكنات، لكني هززت رأسي، لا. فرآني (آبريو) وأومأ برأسه، نعم. فالتفت المدرب (برانون) وقال:

«أتحاولين أن تقولي شيئًا يا حمدان؟».

obeikandl.com

«أيهـا المدرب العسـكري، أنا لا أريد أن أصـبح قائـدة ثكنات، فيكفينـي أن أكون قائدة فصيلة».

منع نفسه من الضحك، وقال:

«لأنك قلت: لا، أحضري رفيقة عسكرية، واتبعيني».

تنهدت.

«ماذا قلت؟».

«لا شيء أيها المدرب».

طلبـت من امـرأة من ولايـة (بورتوريكو) تدعـى (رودريجيس) أن تذهـب معي. فتبعنا المدرب (برانون) خلال الثكنات إلى مكتب المرضى، ثم بحث في كومة من الأوراق، وأعطاني ورقة وجدها في القاع تقريبًا. كانت هذه الورقة تحتوي على تعليمات عن كيفية ترتيب الجنديات لخزائنهن بالشكل الصحيح.

انتشـر خبر تعييني قائدة للثكنات بسـرعة. وأصـبحت إيمان وعطى والبغدادي غيرتهن ظاهـرة مني، وأصـبحن يخبرن الجنديـات الأخريات بالابتعـاد عني؛ لأنني سـأخبر المدرب العسكري بكل شيء يحدث في الثكنات، وهذا ليس صحيحًا.

لكـن علـى الرغم من هـذه الإثارة، بـدأت تدريجيًّا أشـعر بالارتياح في منصـبي قائدة للثكنات. كنت أشعر بأني أم أكثر مني قائدة، فقد عاملت الآخرين في فصيلتي كأنهم أطفالي، وكانوا يأتون إليّ ليخبروني عن المشـكلات التي يواجهونها. ففي أحد الأيام جاءت جندية من العراق تدعى (العلالي) إلى سريري، ووضعت رأسها على كتفي باكية، ثم قالت لي:

«أريـد نصـيحتك يا فدوى، البغدادي تظل تخبرني بأن أرسـب عمدًا فـي اختبار تحديد الكفاءة اللغوية (ECL). وقالت: إنه من الأفضل لي أن أترك الجيش؛ لأنها ستعرفني على شاب سيشتري لي أشياء، ويضعني في بيت يأويني».

مسّحت على شعرها، وقلت لها:

obeikandl.com

«لا تستمعي لها يا علالي. فأنت شابة ذكية سوف تمضين عامين في الجيش، ثم بعد ذلك تفعلين ما يحلو لك، وسوف تقابلين شخصًا تحبين البقاء معه، لا تدعي أي شخص يختار رجلًا لك».

ازداد بكاؤها، وقالت لي:

«هل تقرئين القرآن لي يا فدوى؟».

قرأت بهدوء بعض الآيات القرآنية لها، حتى نامت. وتركت رأسها على كتفي، حتى أيقظتها مكبرات الصوت.

ظلت البغدادي تضغط على العلالي لتترك الجيش، واستدرجها لعلاقة مضطربة، مثل علاقتها هي وإيمان وعطى، وكانت أربعتهن يتجادلن باستمرار.

وفي داخل الثكنات في أحد الأيام بعد الظهر طلبت مني عطى أن أكون رفيقتها العسكرية لتذهب، وتتحدث مع المدرب العسكري المناوب. فذهبنا إلى المكتب، ووجدنا المدرب (دينسون). أخبرته عطى بأن البغدادي قد سرقت بطاقتها الائتمانية، واستخدمتها لتسحب نقودًا من الصراف الآلي.

نادى (دينسون) على البغدادي في مكبر الصوت، وأخبرها بأن تحضر رفيقة عسكرية معها إلى مكتب المرضى، وعندما وصلت البغدادي ورفيقتها إلى هناك كان المدرب العسكري (رواسي) هناك أيضًا سأل (دينسون) البغدادي إن كانت قد سرقت نقودًا من عطى، لكنها بالطبع نفت ذلك. ثم سألها مرة أخرى، ورفضت أن تتحدث، وطلبت أن ترى الرقيب الأول.

عدنا جميعًا إلى الثكنات بعد ذلك. وخلال الوقت الشخصي (فيما بعد أخبرتني عطا) أنها أخبرت إيمان بأن تختبئ وراء باب غرفة التلفاز، وعندما اختبأت إيمان هناك أحضرت عطى البغدادي إلى الغرفة لتتحدث معها، واجهتها عطى بموضوع النقود، فأخبرتها البغدادي بأن إيمان قد سرقت بطاقتها الائتمانية، ثم قفزت إيمان من وراء الباب، وبدأت تصرخ قائلة:

«أنت تكذبين! أنا لم أسرق البطاقة! بل أنت من فعل ذلك!».

بادلتها البغدادي الصراخ، وبدأت عطى تصرخ على كلتيهما لترجعا لها نقودها. ثم دخلت العلالي الغرفة، وتورطت هي الأخرى في المشاجرة. وقف أربعتهن في غرفة التلفاز يصرخن بالعربية، ويصفعن بعضهن، ويشددن شعر بعضهن.

obeikandi.com

أما أنا فقد كنت مستلقية في فراشي أستمع للموسيقا، لذلك لم أسمع شيئًا من هذه البلبلة، فهزتني إحدى الجنديات، قائلة:

«يا قائدة الثكنات! يا قائدة الثكنات!».

ثم هرعت العلالي إلى الغرفة وخداها مبتلان، وشعرها في حالة فوضى، وقالت لي:

«أريدك أن تكون رفيقتي العسكرية».

فذهبنا إلى المكتب، ووجدنا هناك المدرب العسكري (دايفس)، الذي طلب من علالي أن تكتب كل شيء حدث، وبينما نحن هناك جاءت إيمان وعطى، وأخبرتاني بالعربية بما حدث، فقاطعهما دايفس قائلًا:

«فقط اكتبن كل ما حدث؛ حتى أحقق في الأمر».

قالت عطى: إنها ذهبت هي والبغدادي خارج القاعدة مع بعض الجنود الدوليين، وقامتا بإخفاء ثياب مدنية وارتاها داخل السيارة. فنظرت إليها بذهول، وقلت:

«هل أنت مجنونة؟».

كتبت ثلاثتهن ما حدث، ووجب علينا جميعًا أن نوقع على كتاب. وبصفتي قائدة الثكنات وجب علي الاحتفاظ بنسخة من هذا الكتاب.

وفي تلك الليلة كان من المفترض أن تستيقظ البغدادي عند الساعة ٢:٠٠ صباحًا لتنفذ مهمة الحراسة، حاولت إحدى الجنديات أن تهزها لتوقظها، لكن لم تستيقظ، ثم وجدت بالقرب من سرير البغدادي علبتي أقراص دواء فارغتين. فأرسلوا البغدادي إلى المستشفى.

وفي صباح اليوم المقبل جاء المدرب العسكري (آبريو) وجمع كل الأدوية التي معنا، حتى الأدوية المسكنة، ووضعها في أكياس بلاستيكية منفصلة عليها أسماؤنا. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم ذهبت للمستشفى لآخذ بعض الملابس للبغدادي، بينما كانت إيمان تقيم مع البغداي في المستشفى، لكنها لم تستيقظ بعد، كانت إيمان والرقيب الأول والكابتن والملازم الأول هناك أيضًا، فأعطيت ملابس البغدادي لإيمان، وسألتها إن كانت تريد شيئًا تأكله؟ فطلبت إيمان مني أن أحضر لها هاتفها الجوال، عندما آتي للمستشفى في المرة القادمة، وأخبرتني بأنني سأجد مفتاح خزانتها تحت الوسادة، أما البغدادي فبقيت في المستشفى ثلاثة أيام فاقدة الوعي.

وعندما عدت إلى الثكنات التقيت المدرب العسكري (آبريو)، الذي شجعني على الذهاب في النزهة التي سيقيمونها بعد الظهر لكل أعضاء الجيش في المنطقة، فذهبت، وعند موعد الصلاة، ألا وهو يوم الجمعة كان عليّ أن أخبر الجنود بأن يحضروا أنفسهم للذهاب إلى المسجد عند الظهر.

قاد بنا السيارة المدرب آبريو وأتت عطى معنا، وسألت آبريو إن كان متزوجًا؟، وعندما أخبرها بأنه متزوج سألته إن كان لديه أطفال؟، فقال لها:

«توقفي عن طرح أسئلة شخصية!».

فقلت أنا: «أعتقد أن لديك سبعة أطفال أو ثمانية «.

فابتسم، وقال: «أأنت مجنونة؟».

فقلت: «أنا لدي خمسة».

بدا دَهِشًا، وقال:

«أحقًّا ما تقولين؟!».

«نعم، وأتمنى لو كان لدي المزيد، فأنا أريد أن أشكل فريقًا!».

ضحك، وسألني عن أعمار أطفالي؟، فأخبرته.

وفي صباح يوم الإثنين كان علي إعداد برنامج التنظيف للثكنات، وبينما كنت أخرج القمامة أوقفني المدرب العسكري (برانون) وقال لي:

«تعالي إلى هنا يا حمدان!».

كان موجودًا في المكتب، فذهبت إليه.

«نعم، أيها المدرب».

«كم طفلًا لديك؟».

كان جميع المدربين العسكريين هناك (برانون، ودايفس، ودينسون، وميندوزا، ومرسيس، وروب) الذين اجتمعوا حول المكتب ليسمعوا جوابي بدوا مذهولين جدًّا، عندما

أكدت لهم أن لدي خمسة أطفال، ودهشوا أيضًا عندما عرفوا عمري؛ لأنني أركض أسرع من النساء الأصغر عمرًا مني. فبإمكاني أن أركض ميلًا في سبع دقائق.

«هذا صحيح، لدي ثلاثة أولاد وبنتان، ابني البكر عمره تسعة عشر عامًا، وقد أنهى توًّا المرحلة الثانوية».

لم يصدقوني.

«أحضري صورة!».

«ليس معي أي صور».

أخبرهم المدرب (آبريو) قائلًا: «وهي تريد المزيد!».

هز الجميع رؤوسهم دَهِشين.

عندما تعرّف المدربون العسكريون إلي أكثر، زاد احترامهم لي. فإن تحدثت مع أي جندي لن أتورط في مشكلة؛ لأن المدربين العسكريين يعرفون أنني لم آتِ هنا لأغازل أحدًا، فقد كانت معظم أعمار الجنود في عمر ابني يوسف، أي كأنني أتكلم مع أحد أطفالي.

وبعد ذلك مضت مدة لم أسمع فيها شيئًا آخر عن أي متاعب تسببت فيها البغدادي وإيمان وعطى والعلالي. فقد كان على الرقيب الأول والمدربين العسكريين أن يتحققوا مما حدث، لكن سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا لإنهاء الإجراءات كلها.

قررت ألا أجعل مشاجراتهن التافهة تؤثر في، وبقيت بعيدة عنهن قدر الإمكان لأركز على دراستي لاختبار تقييم الكفاءة اللغوية. وكنت أضع سماعات الأذن لأشير إلى الجميع ألا يزعجوني في أثناء دراستي، عملت بجهد على تعلم دروس المفردات والقواعد في الكتاب الأزرق الباهت الخاص بمعهد اللغات التابع لوزارة الدفاع، لكني لم أستطع التخلص من الشعور بأنني لا أحقق أي تقدم نحو اجتياز الاختبار، فلا شيء تدربنا عليه ساعدنا على الاختبار الفعلي. لكن لم يكن هناك خيار آخر أمامي إلا الاستمرار في المحاولة.

وإلى جانب الدراسة استمررت في التواصل مع (أندريا إليوت). فقد طلبت مني قبل أن أغادر نيويورك أن أعلمها بموعد إنهاء تدريبي؛ حتى تأتي لزيارتي، وتنهي كتابة قصتي لصحيفة «النيويورك تايمز». كنت أتصل بها كل يوم خلال وقتي الشخصي، وعندما مضى

على وجودي في (لاكلاند) ثلاثة أشـهر تقريبًا سألتني أندريا إن كان يمكنها المجيء لزيارتي في القاعدة؟ فقد كان عليها أن تنشـر قصـتي قبل نهاية العام، وأرادت أن تراني في القاعدة، وتلتقـط بعض الصـور. لكن كان عليّ أن أطلب من الرقيب الأول قبـل أن أخبر أندريا بأن تأتي للقاعدة، فأنا لم أكن واثقة من أنه سيقبل، لكني قررت أن أسأله على أي حال؟

فأخبرت أحد المدربين العسكريين بأنني أريد أن أتحدث مع الرقيب الأول، فقال لي:

«لماذا، ما الخطب؟».

«لا شيء، أريد أن أسأله عن شيء شخصي فحسب».

وعند الغداء ذهبت إلى قاعة الطعام، ثم أتى الرقيب الأول إلى طاولتي.

«أأردت رؤيتي يا حمدان؟».

«نعم».

«بعد أن ننتهي من تناول الطعام أحضري رفيقة عسكرية، وتعالي إلى مكتبي».

تسـاءلت كثير من النسـاء في ثكناتي عما يجري؟، وظلت كل منهن تعرض عليّ أن تكون رفيقتي العسكرية.

«لا، يجب أن تأخذيني! أريد أن أذهب معك!».

فكـرت لحظـة، ثم طلبـت من إحـدى الجنديات مـن (بورتوريكـو)، التي كانت تسـتعد للتسريح من الجيش، أن تذهب معي؛ لأنه ليس مهمًّا إن فوتت جزءًا من دروس اللغة الإنجليزية بعد الظهر.

فذهبنا إلى المكتب، وطلبنا رؤية الرقيب الأول، فابتسم المدرب العسكري (دايفس) لي قائلًا:

«لن تغادري يا حمدان، فإن كنت قد جئت لتتحدثي عن هذا الموضـوع، فمن الأفضـل أن تعودي إلى المعهد».

ابتسمت له، وطمأنته بأن ذلك ليس هو سبب حضوري هنا.

أضـاف (دينسـون) قائلًا: «من الأفضـل لك ألا يكـون ذلك هو السـبب، فقد اخترناك لتكوني قائدة الثكنات».

obeikandi.com

استدعاني الرقيب الأول (باليستريري) إلى مكتبه. كان يجلس على طاولة مكتبه، وأخبرني بأن أجلس على إحدى الأرائك عند الحائط إلى أن ينتهي من كتابة بريد إلكتروني سريع.كانت لديه عصا خشبية طويلة يحتفظ بها دائمًا في مكتبه. فأمسك طرف تلك العصا، وبدأ ينقر بها الأرض بشكل متكرر.

شكرني (باليستريري) على الواجبات التي كنت أقوم بها بوصفي قائدة للثكنات.

«المدربون العسكريون يقدمون لي دائمًا تقارير جيدة عنك، وليس هناك أي شكاوى، والثكنات دائمًا نظيفة».

تحدثنا قليلًا، ثم أخبرته عن خلفيتي المهنية، وأعطيته بطاقتي.

«كنت تعملين مدرسة؟ أأنت مجنونة؟ لماذا انضممت للجيش؟».

«هذا سبب مجيئي هنا لأتحدث إليك، فأنا أريد أن أخبرك لماذا انضممت للجيش».

فقال: «أنا مهتم بسماع ذلك. فعندما انضممت أنا للجيش لم يكن لدي حتى شهادة ثانوية، ولم تكن لدي الكثير من الخيارات لا أعرف لماذا قد تفعلين ذلك ومعك شهادة جامعية».

أخبرته عن زوجي وفقداني لأطفالي وعن صعوباتي المالية، وكيف أخبرت من الرقيب كلنار بأن الجيش سوف يساعدني على الحصول على الطلاق، وربما الحصول على وصاية أيضًا.

«أيها الرقيب الأول، هناك مراسلة صحفية من (جريدة نيويوك تايمز) تريد أن تكتب قصة عني، فقبل أن أغادر نيويورك بدأت تتحدث معي عن عائلتي وأسباب انضمامي للجيش، وهي تريد أن تأتي لتزورني هنا في القاعدة لترى كيف تسير أمور حياتي هنا. اسمها أندريا إليوت، وسوف يكون مقالها عني فقط، ولن تذكر أي شيء سيئ عن الجيش. فما رأيك؟».

كان (باليستريري) يومئ برأسه، بينما كنت أتحدث، ثم صمت لحظة قبل أن يجيبني قائلًا:

«يؤسفني سماع ذلك عن عائلتك، فما فعلوه بك شيء رهيب. لا أعتقد أن هناك مشكلة إن زارتك صديقتك الصحفية هنا، لكني لا أستطيع اتخاذ هذا القرار، فعليّ أولًا أن أحصل على إذن من رؤسائي».

ثم استدعى الكابتن (برتشيت).

«هذه هي حمدان أيها الكابتن».

أخبر (باليستريري) الكابتن بطلبي، فقال: إنه سيستشير رؤساءه، ثم سيعود إليّ لاحقًا.

وفي اليوم المقبل شاركت كالمعتاد في التدريب البدني، وذهبت إلى المعهد. ثم طرق المدرب العسكري (مارسيس) غرفة الصف، وطلب من أستاذي أن يعذرني. وأخبرني بأن أحضر رفيقة عسكرية تدعى (كورالي) كانت تحت قيد التسريح. لم يقل إلى أين نحن ذاهبون، لكننا ركبنا شاحنة صغيرة.

«هل تورطنا في مشكلة أيها المدرب؟».

«لا، لا تقلقي فقط تعالي معي».

«نحن ذاهبون إلى شعبة التحقيق يا حمدان».

ثم أوقف الشاحنة الصغيرة، ومشينا نحو مبنى ذي سقف منخفض. دقّ (مارسيس) الجرس، وانتظر حتى أجابه رجل مسلح يرتدي بذلة سوداء، الذي فتح مجموعتين من الأبواب ليدخلنا، ثم أقفلها فورًا حالما دخلنا. وعندما أدخلنا ذلك الرجل، ودعنا (مارسيس) وطلب منا أن نتصل به على رقم المكتب عندما ننتهي.

وفي داخل ذلك المبنى كان علينا أن نجلس في غرفة انتظار حتى يرجع الرجل المسلح، ويأخذني إلى غرفة الاستجواب. كان في غرفة الانتظار أريكتان وطاولة قهوة عليها بعض المجلات العسكرية. تصفحنا اثنتين منها، ثم وضعناهما جانبًا بعد أن أصابنا الضجر، ثم مر شاب بنا، فنظرت إلي (كورالي) قائلة:

«إنه شاب وسيم، أليس كذلك؟».

ابتسمت لها قليلًا، فلم أكن مهتمة بمراقبة الرجال الذين يعملون هناك.

ثم أكملت، قائلة: «أنا سعيدة؛ لأنه سيتم تسريحي، أتعلمين يا فدوى، لقد أمضيت ستة أشهر هنا، إلى الآن ستة أشهر! وأنا سأجنّ لعدم ممارستي الجنس. أريد أن أحظى به».

«ششش!» همست لها بأن تصمت؛ حتى لا يسمعها أحد.

انتظرنا طويلًا عودة الضابط المسلح، وتناوبنا على التمدد على الأريكة للنام، بينما بقيت الأخرى مستيقظة للحراسة. وفي النهاية رجع الرجل إلى الغرفة، وعرفنا بنفسه بصفته السيد (سميث).

ثم قال لي ببساطة: «اتبعيني يا حمدان».

أخذني إلى غرفة صغيرة ذات نافذة مظللة صغيرة جدًّا. لم تحتوِ تلك الغرفة على أثاث إلا كرسيين، ثم أخبرني أن أجلس، وأعطاني لوحًا مشبكيًّا فيه نموذج لأعبئه، وقال:

«سوف أعود حالما تنتهين».

بدأت أعبئ النموذج، وكتبت اسمي وعنواني ورقم رخصة قيادة السياقة. كنت أتساءل في نفسي عن سبب حاجتهم لهذه المعلومات، ألا يحتفظ الجيش مسبقًا بكل هذه المعلومات في ملفاتي؟ لكني أنهيت تعبئتها على أي حال، وبعد أن مرّ بعض الوقت وقفت، وتجولت في الغرفة، كنت أشعر بالتعب والاختناق قليلًا من التهوية السيئة في الغرفة، ثم توجهت نحو الباب، ونظرت للأعلى، فلاحظت فجأة كاميرا صغيرة موجهة نحوي.

وفي تلك اللحظة رجع السيد (سميث) إلى الغرفة بصحبة رجل آخر، لم يعرفني بنفسه، كان السيد سميث يطرح عليّ أسئلة، والرجل الآخر يكتب جميع إجاباتي، فسألته قائلة:

«هل فعلت شيئًا خاطئًا يا سيدي؟».

«لا، لا. أنت لست في مشكلة نريد فقط أن نسألك عن قضية حصلت في الثكنات».

سألاني عما أعرفه عن الشجار الذي تورطت فيه إيمان وعطى والبغدادي والعالي بسبب البطاقة الائتمانية المسروقة. فأخبرته بما قد أخبرت المدربين العسكريين من قبل، أي إنني كنت أستمع للموسيقا خلال وقتي الشخصي، وأتت إحدى الجنديات الأخريات لتخبرني عن ذلك الشجار.

«هل تعرفين إيمان حمدان؟».

«نعم، أعرفها».

«هل أنتما بنتا عم؟».

«لا. لقد التقينا في (فورت هاملتون)، القاعدة العسكرية في بروكلين».

«ما مدى معرفتك بها؟».

«ليس كثيرًا».

«لماذا لم تعودا صديقتين؟».

تساءلت: كيف عرف ذلك؟

«أنا أعاملها كأي جندية أخرى، حتى لو كنت غاضبة منها، إن شخصيتها مختلفة عن شخصيتي، هذا كل ما في الأمر».

«وكيف ذلك؟».

«لقد انضممت للجيش لسبب المال ولم آتِ هنا للبحث عن صديق، فأنا أعامل الشبان الذين ألتقيهم كأطفال لي، في الحقيقة أعمارهم تقارب أعمار ابنيّ الكبيرين».

«لقد سمعنا عن ذلك، إن إيمان حمدان في ورطة كبيرة، فقد قبضنا عليها بصحبة شاب جندي دولي».

«هذا الأمر لا يعنيني، فأنا قائدة الثكنات، وفي حال أتت الجنديات إليّ ليخبرنني بمشكلاتهن فسوف أحاول أن أساعدهن قدر الإمكان، وهذا كل ما في الأمر.

«إن كنت تريد معرفة المزيد فاسألها مباشرة، أنا آسف يا سيدي، لكن ذلك الأمر لا يعنيني».

«وماذا عن المراسلة الصحفية من جريدة نيويورك تايمز؟».

«نعم، لقد طلبت من الرقيب الأول إن كان بالإمكان أن تزورني، لن تكتب عن الجيش، بل عني فقط، فهي تريد أن ترى كيف أمضي حياتي الجديدة هنا».

«أوه، هذا ممتاز حسنًا، هذا كل ما في الأمر حظًّا سعيدًا مع رواية قصتك. وإن احتجناك إلى شيء آخر فسوف نستدعيك إلى هنا».

رجعت إلى مكتب الاستقبال، واتصلت بالمدرب العسكري ليقلّني أنا ورفيقتي. أمضيت في غرفة الاستجواب ساعتين ونصف الساعة تقريبًا، ما أصابني بالصداع. فانتظرنا مجيء

المـدرب. كانت الغرفة شـبه مهجـورة، ولم يكن أحد يمر إلا شـخص أو اثنـان كل ربع أو ثلث سـاعة. وفي النهاية جاء رجل (غير السيد سميث) وفتح الأبواب ليخرجنا، فابتهجت رفيقتي، قائلة:

«ممم، إنه لطيف أيضًا».

قاد بنا (مارسـيس) السيارة إلى قاعة الطعام، حيث سمح لنا بأن نأكل متأخرتين؛ لأننا فوّتنـا موعـد تناول الغداء، ثم توجهنا راجعين إلى الثكنات. وعندما وصـلنا هناك وجب علينا الانضـمام إلى مجموعة من الجنود والجنديات في غرفة أسـفل الدرج جالسـين على الأرض، كان أحد الشبان من بورتوريكو جالسًا بالقرب من مجموعة الجنود الشرقين، وقال:

«أنا متلهف لأن أذهب إلى العراق، فسوف أذهب الى هناك لأقتل المسلمين».

أعـاد كلامه مـرارًا وتكـرارًا مقتربًـا منا أكثـر فأكثر، فانحنـت إحدى النسـاء نحوي، وأخبرتني بالعربية:

«حمدان! أتسمعين ما يقوله؟».

«اهدئي! لماذا أنت منزعجة؟».

«ماذا تعنين بسؤالك هذا؟ ذاك الرجل يريد قتلنا!».

أخبرتهـم مرة أخرى بـأن يبقوا هادئين ويتجاهلـوه، فابتعدوا عنه، وابقـوا هادئين، ثم جلس بقربي، وأعاد ما قاله، حاولت أن أركز على التعليمات التي كان يعطيها لنا الرقيب الأول والمـلازم الأول. كانـت هذه التعليمـات تدور حول عدم الشـجار والتحدث معهم إن حصـلت أي مشـكلة. أعاد الجندي الشـاب كلامه مرة أخرى، لكن منعت نفسـي من إظهار أي انفعال، فسألني ذلك الجندي قائلًا:

«ألست منزعجة مثل الآخرين؟».

استدرت ببطء لأنظر إليه، ثم قلت:

«أتدري؟ أنت ما زلت شـابًّا، ولعلك من عمر أطفالي؛ لذلك سأسـدي لك نصـيحة كنت سأسديها لهم إن كانوا مكانك».

obeikandl.com

صمت الشاب، واستمع.

«أنا أخبر أطفالي دائمًا بأن يفعلوا شيئًا خيّرًا، فهو سيعود عليهم فيما بعد. انضم كل جندي وجندية هنا للجيش لأسباب مختلفة، وإن كنت قد انضممت للجيش لتذهب وتقتل المسلمين، فيمكنك فعل ذلك، لكن أريدك أن تتذكر شيئًا ربما عندما تذهب إلى ساحة الحرب سيكون رفيقك العسكري مسلمًا، وربما ستقع في مشكلة، ولن يقدر على مساعدتك إلا مسلم أو عربي. من يدري؟».

ارتسم تعبير غريب على وجهه، وقال لي:

«إن ما تقولينه منطقي، لكن عندما انضممت للجيش أخبرني من وظفني أن علينا أن نقتل المسلمين؛ لأنهم أناس سيئون جدًّا».

«هل تعرفت إلى مسلمين من قبل؟».

«لا. ولا أرغب في ذلك؛ لأنهم العدو».

«لا تستمع إلى شيء، وتصدقه دون علم. فجميع الناس فيهم الصالحون والطالحون».

فسألني: «هل دينك مثل دينهم أيضًا؟».

أجبت: «نعم».

«فلماذا أنت مختلفة عنهم؟».

«جميع الناس مختلفون».

أصبح هادئًا وأكثر اتزانًا بعد ذلك.

وفي اليوم المقبل رآني هذا الجندي الشاب خارج الثكنات أنتظر في التشكيلة، ثم أسرع نحوي قائلًا:

«حمدان! حمدان! يسعدني أنني وجدتك. لقد أخبروني قبل قليل بأنني جاهز لأخضع للتدريب الأساسي، وأردت رؤيتك قبل أن أغادر لأخبرك بأنني كنت أفكر فيما قلته لي، أريد أن أشكرك على الحديث معي، سوف أحاول ألا أقتل أي مسلم».

«هذا جيد. يسرني أنك لن تبحث على فرص لقتل أحد، لكن ربما ستضطر إلى أن تدافع عن نفسك. أتمنى لك حظًّا سعيدًا، وكن حذرًا!».

openkandil.com

ثم كتب عنوانه في دفتر ملاحظاتي الصغير؛ حتى نتمكن من التواصل.

في صباح يوم السبت كان المدرب العسكري آبريو هو المدرب المناوب في المكتب، ثم طلبت منه الحصول على تصريح لأذهب إلى المتجر العسكري؛ حتى أرسل مالًا لأطفالي عن طريق خدمة الحوالة السريعة. كان هناك ثلاثة شبان سجلوا أسماءهم ليذهبوا إلى المتجر لاحقًا في ذلك اليوم، لذلك طلب مني أن أنتظر لأذهب معهم. فرجعت إلى الثكنات لأرتب بعض الأشياء تحضيرًا للتفتيش. وفي النهاية سمح لي بالذهاب مع الجنود (مدينا) و(مدينا) و(توريس).

وعندما وصلنا إلى المتجر العسكري أرسلت بعض المال لأطفالي، وانتظرت الشبان حتى انتهوا من شراء حاجاتهم. ثم مشوا نحو المكان الذي كنت أقف فيه، ونظروا بحذر إليّ، يرمق أحدهم الآخر بنظرات كأنهم يسألون بعضهم إن كان يجب اطلاعي على ما يجري أم لا. وفي النهاية تكلم أحدهم قائلًا:

«حمدان، لقد اشترينا أحذية رياضية جديدة».

«حسنًا».

«واشترينا أيضًا جهاز راديو وبعض الشوكولاتة وحلويات أخرى. أنت لن تخبري المدرب العسكري بهذا، أليس كذلك؟».

ضحكت، وأجبتهم:

«لا، لن أخبره. لكنهم سوف يفتشوننا، عندما نعود للثكنات، أنتم تعرفون ذلك! فهم دائمًا يفتشون بحثًا عن المحظورات».

«لا تقلقي بشأن هذا، سوف نريك أين نخبئ الأشياء».

وفي وقت لاحق بعد الظهر عدنا إلى الثكنات. كانت هناك كاميرات عند مدخل أسفل الدرج، لذلك تسللنا من خلف المبنى كالعملاء السريين. ثم خبأ الشبان المحظورات في صندوق قمامة صغير، ونقلوه بعيدًا عن الحاوية.

«أنتم كلكم مجانين! ما أدراكم أنهم لن يأخذوا القمامة؟».

«لا تقلقي، فهم سيأخذون القمامة من الحاوية فقط، ولن يلاحظوا فقدان صندوق القمامة الصغير، جميع الجنود يتبعون هذه الطريقة».

هززت رأسي، واتجهت عائدة إلى قاعة الطعام، ثم أريت المدرب العسكري الإيصال المالي. فقال لي:

«لقد تأخرت».

«كان هناك طابور طويل».

وفي يوم الأحد استدعاني المدرب العسكري (ميندوزا).

«حمدان! أنت معلمة، وتعملين هنا مع هؤلاء الجنود؟ أنت مجنونة يا حمدان!».

وبعد أسبوع تقريبًا استدعاني الرقيب الأول لمكتبه، وكان المدرب العسكري آبريو والكابتن هناك أيضًا، وقد بدوا متوترين قليلًا.

«لقد سألنا، لكن لم نتمكن من الحصول على إذن من سلاح الجو لتزورك صديقتك الصحفية هنا في لاكلاند، لكن يمكنها أن تزورك عندما تذهبين للتدريب الأساسي في المرحلة الثانية، فعندئذ يمكنها التقاط صور لك وأنت تتعلمين استخدام الأسلحة، وتركضين مع جنود آخرين،... إلخ».

«لكن ماذا لو لم أجتز اختبار اللغة الإنجليزية؟».

«لا تقلقي، سوف تجتازينه! أنت في حاجة إلى بعض العلامات الإضافية فقط».

«لكنهم يعرفون أيها الرقيب الأول، أنها ستكتب عني فقط، وهم لا يعتقدون أنها ستكتب عن أي أسرار عسكرية، أليس كذلك؟ فهذا غير صحيح؛ لأنها ستكتب قصة عن حياتي، وقد وعدتني أنه إذا حصل لي شيء فسوف تنشر قصتي لتخبر أطفالي بأنني فعلت هذا من أجلهم. لذلك أرغب بشدة في أن أنهي هذه المقابلة، فإن لم أفعل فلن يعرف أطفالي أبدًا أنني أحبهم».

«أنا آسف يا حمدان، ليس في يدنا حيلة، فهذه هي الأوامر».

«شكرًا لك».

شعرت بالأسى، لكن لم يكن لدي شيء آخر لأقوله كان علي إيجاد طريقة لإحضار أندريا إلى هنا، فلا يمكنني الاستسلام الآن.

obeikandl.com

وفي يوم الجمعة بعد الغداء نحو عشر من الجنود المسلمين أرادوا الذهاب إلى المسجد للصلاة، لذلك ذهبنا للخارج لنصطف في تشكيلة. ولأنني كنت قائدة الثكنات وجب علي أن أقود المجموعة. من المهام الاعتيادية لقائدة الثكنات أن توجه الأوامر بصوت عالٍ. يسار! يمين! يسار، يمين! يسار! استريحوا! لكن كان الصوت القادم من فمي ناعمًا جدًّا، وشعرت بالنعاس بعد الغداء، فلم تكن لدي الطاقة.

همست قائلة: «أيها المدرب العسكري! لا أستطيع أن أوجه الأوامر بصوت عالٍ، أحس بالتعاس».

تنهد المدرب منزعجًا قليلًا، وقال:

«حسنًا يا حمدان، عليك فقط إعطاء الأوامر، وأن تتأكدي أن الجنود يمشون في خط مستقيم».

كان ذلك أسهل؛ لأنها مجموعة صغيرة، فلم أضطر إلى إجهاد صوتي ليسمعنني.

يسار! يمين!

شعرت بالراحة التامة.

وعندما وصلنا إلى المسجد تصرفت بعض الجنديات ببرود نحوي. فقد كانت إيمان والبغدادي يخبرنهن بأنني جاسوسة لمصلحة المدربين العسكريين، وأنهم عيّنوني قائدة للثكنات لأني أخبرهم بأي شيء ممنوع تفعله الجنديات (وهذا تفكير غير صحيح، فقد كنت أداري على أخطائهم الكثيرة). كانتا غيورتين مني؛ لأنني أحظى باحترام المدربين العسكريين والجنديات.

وبعد أن انتهينا من الصلاة سمعنا صراخًا قادمًا من منطقة الصلاة الخاصة بالرجال، فتسللت أنا والجنديات الأخريات نحو الغرفة لنستمع، وهناك كان جندي مصري يدعى (بركات) يواجه الكابتن الحبشي قائلًا:

«لن أغادر الجيش!!! وسوف أبقى مهما حصل!».

كان بركات في المجموعة الزرقاء، وسوف يتم تسريحه عما قريب؛ لأنه لم يجتز الاختبار، وقبل أن يأتي إلى الولايات المتحدة كان ضابطًا ذا مرتبة رفيعة في الجيش المصري، لكنه

هرب، وانضـم إلى الجيش الأمريكي؛ ليحصـل على الجنسية الأمريكية، فإذا تم تسريحه الآن لن يتمكن من الحصـول على تصـريح إقامة، وسيضـطر إلى العودة لمصر، وهناك سيسجن؛ لانضمامه للجيش الأمريكي.

رآني بركات بطرف عينه، ووجه إليّ أصابع الاتهام قائلًا:

«أنت من فعل ذلك!!».

تلعثمت، قائلة: «ماذا؟ ماذا تعني؟».

«أنت تخبرين المدربين العسكريين بكل شيء! ولا بد أن لديهم شيئًا ضدي. أنت أخبرتِهم بشيء عني، والآن يريدون أن يسرحوني!».

«لم أخبرهم بأي شيء، وأنا لا أعرف شيئًا أخبرهم به».

«لن أغادر، وسوف أبقى هنا في المسجد، حتى يجدوا طريقة لأبقى في الجيش».

دافع عني جندي مصري آخر يدعى (السيري) قائلًا:

«لا تقل هذا عن حمدان، فهي لم تفعل ذلك».

تدخل الكابتن الحبشي، وقال: «توقف عن الصراخ».

ذهبت إلى المنطقة الأخرى لأهدئ أعصابي، فتبعني السيري، وقال لي:

«لا تنزعجي يا حمدان. سوف أعد بعض الشاي اللذيذ لك، فأنت أختي».

بعـد أن هدأت قليلًا سـرت بالجنديـات عائدات إلـى الثكنات، كان المدرب العسـكري (برانون) ينتظرنا، وسألنا: كيف جرت الأمور؟، فأجبناه:

«بخير».

لم أعرف أن الكابتن الحبشـي اتصـل بمكتب الثكنات قبل أن نصل، وأخبره عن بركات، ثم ذهبت إلى غرفة الغسـيل، لكن كان علي ترك غسـيلي هناك والذهاب إلى المكتب لأتحدث مع دينسون ورواسي عن بركات.

«إنه لا يزال في المسجد يا حمدان، علينا أن نتحدث مع الرقيب الأول».

obeikandl.com

كانت عطى هي رفيقتي العسكرية، لكني طلبت من المدربين العسكريين أن يجعلوها تنتظر في الخارج (لأني أعرفها إذا بقيت، وسمعت ما يدور ستخبر الجنود بكلام غير صحيح، وتزيد في الكلام)، فقالت:

«لا! أريد أن أبقى هنا! وأريد أن أعرف ما يجري!».

وفي داخل المكتب سألني الرقيب الأول باليستريري عما حدث؟

«إنهم يعتقدون أنني أخبر المدربين العسكريين بكل شيء؛ لأني قائدة الثكنات».

ولاحقًا أرسلوا أحدهم ليحضر بركات، الذي توقف عن الحديث معي كليًّا. لم آخذ غضب بركات مني على محمل شخصي، لكني كنت دَهِشةً لأنني كنت دائمًا طيبة معه، وأساعده على تعلم قواعد اللغة الإنجليزية، عندما يحتاج إلى ذلك. إلا أنني أعرف وضعه وقلقه من أن يسجن، أو يتم تهديد أفراد عائلته أو إيذاؤهم. لم يكن هو الشخص الوحيد الذي لديه سبب ليقلق، فقد كنا جميعًا في القارب نفسه، فعلى الرغم من أن علاقة الأردن جيدة نسبيًّا بالولايات المتحدة، إلا أنني تساءلت: ماذا سيحدث لي إن رجعت للوطن، واكتشفوا أنني كنت في الجيش الأمريكي؟ سوف أكون مشبوهة أينما أذهب، فإذا ذهبت إلى الوطن يمكن أن يعدّوني خائنة، وإن بقيت هنا يمكن أن أتهم بأني جاسوسة لمصلحة الإرهابيين. فمن المدهش حقًّا أننا استطعنا جميعًا ضبط أعصابنا.

بعد أن انتهوا من استجواب بركات استدعوا عطى للغرفة، وسألوها عن الصرافات الآلية التي استخدمتها البغدادي لسحب النقود من حسابها؛ ولأني أتحدث الإنجليزية بشكل أفضل منها طلبوا مني أن أساعدها على الاتصال بالمصرف؛ لأرى إن كان لديهم كاميرات مراقبة، كان من المفترض فينا أن نرجع لحصة الدراسة دون هواتفنا الجوالة، لكنهم منحونا استثناءً هذه المرة.

طلب المدرب من عطى أن تحضر هاتفها الجوال الى المدرسة العسكرية؛ لأساعدها على الاتصال بالمصرف خلال الاستراحة، لكن عندما بدأت الاستراحة أخبرتني بأنها نسيته، ولم يكن هناك وقت للعودة للثكنات وإحضاره، وقد نسيت هاتفي في خزانتي؛ لذلك اضطررنا إلى الانتظار حتى اليوم المقبل للاتصال بالمصرف.

وفي صباح اليوم المقبل أخبرت عطى بأنني سأحضر هاتفي الجوال، وعليها أن تترك هاتفها في الثكنات، فلم أرد أن أخاطر بأن يعتقد الآخرون أنني أستغل الاستثناء للتعليمات الذي منح لنا، وفي وقت الاستراحة انتظرت خارج حصتي لألتقي عطى، لكنها لم تحضر. فذهبت إلى المكتب لأرى إن كانت قد ذهبت لتلتقي المدربين العسكريين. وهناك وجدت روب ودينسون والكابتن برتشت. بدا دينسون مستاء عندما قابلتهم، وقال لي:

«أنت تعرفين يا حمدان، أنه من الممنوع أن تحملي هاتفًا جوالًا».

«لكن المدرب العسكري روب أخبرني بأن آخذه لأتصل بالمصرف نيابة عن عطى».

لم يقل روب شيئًا، وفي النهاية تحدث الكابتن برتشت لي، قائلًا:

«حسنًا، اذهبي واتصلي بالمصرف الآن، ثم أعيدي هاتفك لمكانه».

اتصلت بالرقم، لكنهم وضعوني قيد الانتظار. فانتظرت بفارغ الصبر، وأنا أستمع لموسيقا المصعد، وصوت الرد الآلي يخبرني بأن أستمر في الانتظار، وسوف يجيبني أحدهم بعد قليل.

انتهت الاستراحة قبل أن يجيب ممثل البنك، لذلك كان عليّ أن أغلق السماعة، وأذهب إلى الحصة، وهناك سمعت بعض الجنديات يهمسن بأنهن رأين عطى تستعمل هاتفها الجوال في دورة المياه، وبعد الحصة تجاهلتها، عندما حاولت أن تعتذر إلي، وفجأة سمعنا صوت دينسون يتجه نحونا بسرعة، قائلًا:

«حمدان، عطى، تعاليا إلى هنا!!! وأحضرا هاتفيكما! لا يسمح لكما بأن تحملا الهواتف هنا!».

انتظرت الجنديات الأخريات بشغف ليسمعن ردّنا.

«لكني أخبرتك أيها المدرب، بأنني أحمل الهاتف لأساعد عطى على الاتصال بالمصرف، وأنا لم أعرف حتى أن هاتفها معها».

لم تقل عطى شيئًا، ثم أخذ دينسون هاتفينا، وابتعد وهو غاضب جدًّا. إن لم أسترجع هاتفي فلن أتمكن من الاتصال بأطفالي في عطلة نهاية الأسبوع، فعليّ أن أسمعهم صوتي من حين لآخر؛ حتى لا ينسوا كل شيء يتذكرونه عني، أما عطى فكانت في الثامنة عشرة من

عمرها، ولا تفكر في مثل هذه الأشياء، فكل ما تفكر فيه هو مغازلة الجنود.

وبعد أن رجعت للثكنات قام روب ودينسون باستدعائي أنا وعطى إلى المكتب، ثم تحققا من هاتفينا الجوالين، ووجدا أنني لم أجرِ مكالمات خلال ساعات الدراسة باستثناء المكالمة مع المصرف.

«يظهر سجل مكالماتك يا عطى، أنك أجريت كثيرًا من المكالمات خلال حصصك الدراسية، ومعظمها مكالمات خارجية، والهاتف ليس مسجلًا باسمك، حتى من هو هذا الرجل؟».

أصبحت عطى متجهمة الوجه، وقالت:

«الهاتف مسجل باسم والدي».

«إذن علينا أن نتصل به لنتأكد من ذلك».

في نهاية المطاف احتجزوا هاتفي يومين، وهاتف عطى شهرين، وكانت عطى تلح على دينسون كل يوم خلال هذين الشهرين بأن يعطيها هاتفها.

«هل تسمح بأن ترجعه لي الآن؟ فأنا أعتقد أنني تلقيت عقابًا كافيًا إلى الآن، وأنا في أشد الحاجة إلى هاتفي».

ابتسم، وقال: «لا! لن أرجعه!».

وفي النهاية أرجع المدرب لي هاتفي، فشكرته.

في صباح أحد أيام الخميس في شهر آب كان علينا الخضوع لاختبار رياضي. فاجتزت ذلك الاختبار بعد أن نفذت خمسة عشر تمرين ضغط، وأربعة عشر تمرين معدة، وركضت مسافة ميل في سبع دقائق، وبعد أن أنهى الجميع تدريباتهم اصطففنا في تشكيلة لنعود إلى الثكنات، فاقترب مني المدرب آبريو مترددًا قليلًا، وسألني:

«حمدان، هل تتكلمين لغة أزنار نفسها؟».

كان أزنار مغربيًّا، ويتحدث العربية، لذلك استطعت التواصل معه، حاول أزنار أن ينتحر ليهرب من الجيش، فقد شق بشفرة جرحًا في معصميه حتى يتم تسريحه، لكن لم يسمح

الجيش لأحد بالمغادرة دون سبب، فلا يتم تسريح الجندي إلا إذا كان يعاني مشكلات صحية أو فشلًا في الاختبار. فاختار أزنار الفشل في الاختبار؛ لذلك أرادوه أن يذهب إلى المستشفى ليرى مستشارًا نفسيًّا، وإن لم يعرف كيف يعبّر عن شيء ما، فسأترجمه له، طلبت من جندية أخرى، وهي امرأة مكسيكية تدعى (براندي)، أن تكون مرافقتي العسكرية، ثم ركب ثلاثتنا شاحنة صغيرة يقودها المدرب العسكري (روب) واتجهنا إلى مستشفى القاعدة.

وعندما وصلنا إلى المستشفى غادر روب، ومشينا نحن الجنود الثلاثة معًا خلال ساحة المستشفى، كان كثير من المرضى يتجولون في ساحة المستشفى، جميعهم يعانون على ما يبدو أمراضًا عقلية، فواحد يتحدث مع نفسه، والآخر يقف ويجلس، ثم يقف ويجلس مرة تلو الأخرى، وكانت إحدى الجنديات مكبلة بالأغلال عند معصميها وكاحليها، لم أكن متأكدة من ردة فعلي نحوهم، لذلك نظرت للأرض، وأكملت طريقي نحو المستشفى.

لاحظ أزنار توتري، وقرر أن يستغل الوضع، فتحدث لي بالعربية؛ حتى لا تفهم براندي ما يقول.

«سوف أقف في الخارج يا حمدان، وأدخن سيجارة، حسنًا؟».

كنت خائفة من أن يهرب، فماذا سأقول للمدربين العسكريين عندئذ؟

«لا، لا يمكنك ذلك».

قاطعتنا براندي قائلة:

«ماذا يقول؟».

أجابها أزنار بالإنجليزية، قائلًا:

«أخبرت حمدان بأنني سأذهب إلى دورة المياه، وسأعود فورًا».

فرددت عليه بالعربية: «أرجوك يا أزنار، لا تهرب».

«لا تقلقي سوف أعود حالًا».

قالت براندي: «إن لم يكن يحب الجيش فلماذا لا يتركونه يرحل؟».

«ماذا بوسعي أن أقول لك يا براندي، أنا لا أعرف لماذا؟».

obeikandl.com

انتظرت عودته، وقلقي يزداد بمرور الوقت، لكن لم يرجع أزنار بعد. مشيت أنا وبراندي في الطابق بأكمله نبحث عنه، وفي اللحظة التي بدأنا فيها نشعر بالفزع حضر أزنار يمشي على مهل.

«ماذا حدث يا أزنار؟! أين كنت؟!».

«ما خطبكما؟ كنت أجلس في الخارج أدخن سيجارة فحسب».

كان عليّ أن أهدئ نفسي بسرعة، عندما استدعى الطبيب أزنار. وأخبرني الطبيب بأن أبقى في غرفة الانتظار، وطمأنني بأنه سينادي علي إن احتاج إلي. وعندما أنهيا جلستهما رجع أزنار إلى غرفة الانتظار، فاتصلت بالمدرب العسكري ليرجعنا إلى الثكنات.

وفي يوم الجمعة خضعت لاختبار اللغة، واجتزته بنجاح.

خلال التحقيق في قضية البغدادي اكتشف المدربون العسكريون أن البغدادي وعطى قد غادرتا القاعدة، وهي جنحة خطيرة، لكن عطى كذبت، وقالت: إنها مستجدة هنا، ولم تعرف أنها قد غادرت القاعدة، وطلب المدربون العسكريون منها أن تكتب كل شيء حدث، ويمكنها أن تكتب قصتها بالعربية، وأساعدها أنا على ترجمتها إلى الإنجليزية.

وفي إحدى الليالي تشاركت أنا وعطى الحراسة في الوقت نفسه، فهمست لها، قائلة:

«عطى! لديك الوقت الآن لتكتبي ما حدث!».

«لا أريد فعل ذلك، أريد أن أنام».

لكن بعد أن أصررت عليها قليلًا بدأت تكتب التقرير، فاعترفت بأنها غادرت هي والبغدادي القاعدة لتأكلا في مطعم شرقي.

لم يحدث شيء للبغدادي في نهاية المطاف، فلم يستطيعوا أن يثبتوا أنها سرقت مال عطى؛ لأن الرقم السري كان معها؛ لذلك جعلوها ترجع المال فحسب. ولاحقًا أخبرت العلالي المدرب العسكري دينسون بأن البغدادي اقترضت ٣٠٠ دولار منها، ولم ترجعها أبدًا، وبعد انتهاء الدراسة أخذوني أنا والعلالي والبغدادي إلى المتجر العسكري، وسحبت البغدادي ٣٠٠ دولار لتعطيها للعلالي. كنت أنا شاهدة على ذلك، وكان علينا جميعًا أن نوقع ملاحظة تفيد بأن البغدادي قد أرجعت للعلالي مالها.

وعند عودتنا للثكنة العسكرية، فتحت غرفة التلفاز؛ لأنني الوحيدة التي معها المفتاح، وأخبرت إيمان والبغدادي وعطى والعلالي بأن يذهبن إلى غرفة التلفاز؛ حتى أتحدث معهن. ثم أغلقت الباب.

«جميعكن لا تدركن ما فعلتن، أنا متأكدة أنكن طيبات القلب، وأتيتن إلى هنا لتحصلن على وظيفة، فلماذا لا تعملن على تحقيق أهدافكن، وتنهين التدريب دون تذمر، وتخطين خطوة للأمام في حياتكن؟ ألا تشعرن بالخجل من أنفسكن، عندما تفشين أسرار بعضكن أمام جميع المدربين العسكريين والجنود؟ أنتن تعكسن صورة سيئة عن النساء الشرقيات، ربما تعتقدن أنني لا أعرف أنكن تعانين الضغط والاكتئاب، لكن عليكن أن تضبطن أنفسكن، فأنا مثلكن أيضًا أصاب بالاكتئاب أحيانًا».

قاطعتني العلالي، قائلة:

«أنت؟! لكنك لا تبدين مكتئبة أبدًا، فأنا أراك خلال الوقت الشخصي في غرفة التلفاز ترقصين مع النساء الأخريات، وتغنين، وتتحدثين عن تطلعاتك نحو الحياة، وأنت هادئة، عندما تريدين أن تكوني هادئة».

«هذا صحيح. لدي مشاعر مثلي مثل الجميع، فأنا لست جندية وطالبة فحسب، فأنا أعد برامج التنظيف، وأتأكد أن كل شيء بخير، وعندما تنام جميع الجنديات أتجول حول الثكنات؛ لأتأكد من جميع الجنديات مغطيات بالبطانية؛ حتى لا يبردن، وإذا مرضت إحداهن أتحقق إن كانت تعاني ارتفاع الحرارة، وإن كان لديها الدواء، أنا أستمع لمشكلات الجميع، حتى لمشكلات الجنود الذكور، وأقدم لهم النصائح، وأشجع الجميع على إنهاء التدريب، فأنا مثلكن أشعر بالمعاناة لأحقق النجاح، وأشعر بألم الانفصال عن صديقاتي وعائلتي، لكني اخترت أن أضبط نفسي».

استمعن إلي بصمت، وأدركت أنهن شعرن بالذنب. فاعتذرن، وعانقن بعضهن.

وبعد ذلك شعرنا بالراحة من التوتر الذي كنا نعانيه.

في صباح يوم السبت (في شهر آب؟) أخبرونا بأن نرتدي بذلاتنا الرياضة، ونلتقي بقرب حافلة عند الساعة ٦:٠٠ وهناك كان جميع المدربين العسكريين ينتظرونا، كنا ذاهبين إلى مدينة ملاه تدعى (٦ أعلام). وبينما صعد الجميع إلى الحافلة وقفت في المقدمة لأعدهم، فناديت على الأرقام.

قال المدرب العسكري: «لا نسمعك ارفعي صوتك!».

حاولت أن أرفع صوتي أكثر، لكن لم أستطع.

ثم قال لي المدرب: «فقط ارفعي أصابعك مشيرة الى الرقم!».

وعندما وصلنا إلى مدينة (٦ أعلام) انفصل الجميع، وذهب كل في طريقه. وانطلقنا بسرعة لنهرب من أعين المدربين العسكريين اليقظة. ولم يرد أحد أن يمضي اليوم مع المدرب دينسون؛ لأنه شديد في تعليماته، وسيصبح بكل تأكيد يومًا مملًّا بالنسبة إلى الجنود، وكان على كل واحدة منا أن تذهب بصحبة مرافقة عسكرية، فطلبت مني جندية تدعى (فيدال) أن أكون مرافقتها؛ حتى لا تضطر إلى أن تذهب مع صديقاتها البورتوريكيات. فقد كانت تعاني مشكلات مع رودريجوز؛ لأن صديق رودريجوز بدأ يغازلها.

تناولت أنا وفيدال الغداء مع بعض الجنود الذكور، ثم ركب كثير منا القطار السريع مع المدرب العسكري روب ومارسيس، أصبح وجه مارسيس شاحبًا في أثناء ارتفاع القطار للأعلى، فسخر الآخرون منه قليلًا، ونادوا عليه، قائلين:

«هل أنت خائف أيها المدرب مارسيس؟».

«لا، أبدًا!».

أما أنا فابتسمت، وتشبثت جيدًا، فقد كانت هذه أول مرة أركب القطار السريع.

ولاحقًا سألتني (فيدال) إن كنت أريد الذهاب للسباحة؟ رفضت، فإني أعرف السباحة، ولكني ألتقط صورة لها ولمارسيس وروب والجنود والجنديات الأخريات من الشرق الأوسط وبورتوريكو. وبينما كنت أضع الكاميرا في مكانها رأيت بطرف عيني بركات، فشعرت بالانزعاج قليلًا من المشكلة العالقة بيننا، أردت أن أتحدث معه، لكني فكرت في أن ذلك سيغضبه فحسب؛ لذلك لم أقل شيئًا، وعدنا جميعًا إلى القاعدة، إلى الدراسة، والفشل، والشجار الذي لا نهاية له.